المرأة بين "الاستعراء" والتلفف في "حجاب" : مقاربة أنثروبولوجية ونفسانيّة

محمد شفيق

أحدثت قضية الحجاب في الدوائر السياسية والثقافية والدينية الفرنسية ضجَّة لا تزال أصداؤها تصخّ الآذان. ومما استرعى انتباه المحلّلين أن البلدان الغربية الأخرى لم يحدث فيها شيء من هذا القبيل، ولم يحتدِم فيها النقاش حَولَ موضوع الحجاب الإسلامي. والسبب سببان اثنان، أولهما أن أكبر جالية إسلامية في أوربا استوطنت فرنسا؛ وثانيهما أن فرنسا صارت هي الدولة الغربية الحاملة للواء العَلمانية الراديكالية منذ أواخر القرن الثامن عشر، وذلك بعد أن كانت لقرون عديدة هي «البِنْتَ البِكرَ للكنيسة الكاثوليكية» كما كان يفتخر به ملوكها ونبلاؤها وأساقِفَتُها. وقد ظهرت فرنسا في هذه المناسبة، أو ظهر كِبارُ زعمائها السِّياسيّين، بمظهر التعصُّب لنوع من التطرف العَلماني، تَساوى فيه اليمين واليسار، حتى إن رئيس الجمهورية اضطُرَّ إلى تكوين لَجنة «مُحايِدة» عُهِد إليها بإبداء رأيها في الموضوع. وبعد اطّلاعه على التقرير الصادر عن تلك اللجنة، وجه خطاباً إلى الأُمّة أعلن فيه أنه ارتأى أَنّ مسألة تأكيد عَلمانية النظام السياسي الفرنسي من اختصاص البرلمان، وأَنّ مُمَثِّلي الشعب مدعوّون إلى اتخاذ تدابير قانونية من شأنها أن تحظر في المدارس حملَ الشارات الدِّينِيّة اللافتة للأنظار

بِكِبَر حَجمِها. ومن الواضح أن في هذا الموقف خَرقاً لِمبادئ العَلمانية نفسها، بما أنها تضمن حُرِّية التدين، والتديُّن من خصائصه التجلّي في ممارسة شعائر الدين والالتزام بأخلاقياته. وقد اعتبر رئيس الجمهورية الفرنسية الحجابَ الإسلامي مُجرَّدَ شارةٍ، ولَمْ يرَ في احتجاب المرأة المسلمة استجابةً لِمُقتَضَيات الأخلاق الإسلامية. ويَغلب على الظن أنه فعل ذلك عن تجاهل لا عن جَهْل، بِما أنَّ لِباسَ الاحتشام صاحَبَ تاريخ المرأة الكِتَابيّة حتى أوائل القرن العشرين كما يظهر ذلك في اللَّوحات المستعرِضة لأشكال الملابس النِّسوية في تطوُّرها عبر العصور. (وعن قصد استعملتُ عبارة «لباس الاحتشام»، لأنَّ بيت القصيد من حديثي هذا سيكون هو طَرْحَ مُشكلةِ «السفور الفاحش» أو «الاستعراء» في تعارضه مع «التَلَفُّفِ الخانق» طرحا جديداً، يُراعِي مُعطىً جديداً، لَعَلَّه هو الحاسِم). ومَهما يَكُن مِن شيءٍ، لا تزال الطبقة السياسية الفرنسية تعالج القضية على المستوَيَيْن الحكومي والإعلامي، رَيْثَما تُعرض المسألة على أنظار البرلمانيين.

أمَّا الدوائر الثقافية فقد تضاربتْ فيها الآراء بين العَلمانِيِّين المتشددين المتعصِّبين وبين العَلمانِيِّين المتفتِّحين الَّذين يَرَون أن العَلمانية هي حُرِّيَة التدين، وأن حُرِّيّة التديُّن كلٌّ لا يتجزَّأ. والواقع هو أنَّ تَطَرُّف المتطرِّفين، حَسَبَ ما يَظهر، يَنِمُّ عن خَوْفِهم من انتهاز الكنيسة الفُرصةَ للرجوع إلى فرض سَيطرتها على النظام التربويّ، بما أنَّ المسلمين لَيسوا إلا أقلِّية. وممَّا جَعَلَهم يَخشَون هذا الرجوعَ أَكثَرَ، هُو وقوفُ رِجالِ الدِّين كافَّةً إلى جَنْب المسلمين المدافِعين عَن حرِّيَّة لُبس الحجاب. وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ من بين مسلمي فرنسا طائفةً معروفةً باسمِ «المسلمين العَلمانيين»، لَم يتمكّن أعضاؤها من توحيد الرأي في الموضوع الذي نحن بصدد طرقه. وقد ذهب الدّاعون لتخلّي الفتاة المسلمة عن الاحتجاب مذهب المدافعين عن حرية المرأة، موهِمين أنَّ الرجال هم الذين يَفرضون لُبس الحجاب على أزواجهم أو بناتهم أو أخواتهم. ومن المتّهِمين للرجل المسلم باضطهاد المرأة المسلمة، رئيس الجمهورية نفسُه. وقد استنكر مَوقِفه بعض كبار

الصحفيين، كما فعل محرّر افتتاحية «Le Monde»، إذ نشرها يومَ 2003.12.19 بعنوان «سياسة الخوف»؛ وسخِر من خطاب الرئيس صُحُفيون آخَرُون وتهكَّموا على صاحبِه واصفين إيَّاه بالأستاذِ الجاهلِ لمادة درسه. وقد أدلى المسلمون بِدلائهم في النقاش من خارج فرنسا، وزاحمهم في ذلك حتَّى العَرب غيرُ المسلمين؛ فحُرِّرت عشرات المقالات، وأُلِّفت كُتُب...

وممَّا لفت نظري شخصيًّا أن الذين تحاوروا في موضوع الحجاب، أو موضوع لباس المرأة بصفة عامة، لم يطرقوا منه إلاَّ بابَيِ الدين والسياسة، مع العلم أنَّ سلوك الإنسان من حيث سبُلُ التواصلِ الجنسيِّ بين الرجل والمرأة قد صار موضوع تحليل ودراسة في ميدانَيْ عِلم النفس والأنثروبولوجيا البيولوجية، بل قد انفرد بعِلم خاصّ به سُمّي ب «علم الجنس، la sexologie»، وألّفت فيه مئات الكتب. ومن حقّ المرءِ أن يُسائل هذه العلومَ بُغية مقاربة موضوعيّةٍ لإشكاليّة دور لباس المرأة في ربط الصلّة الجنسية، معنويّا على الأقل، بين الرجل والمرأة. وبتعبير آخر، هل من حقّ المرأة أن تلبس أو تتعرّى كما تشاء ؟ فإن اختارت لنفسها التعرّي الكلّي أو الجزئيّ، فهل تكون لسلوكها تأثيرات سلَبيّة في المجتمع وفي تصرفات الأفراد من الرجال ؟ ماهي النواميس الطبيعية التي لامَندوحَة للذكر ولا للأنثى عن الخضوع لها في تواصلهما الجنسيّ، وماهي الوسائل التي من شأنها أن تُمكِّن الإنسان من مُمارستِه إنسيّتَه بصفته كائناً اجتماعيًّا يُوازن بين مقتضيات الحياة البيولوجية ومقتضيات الحياة الاجتماعية ؟... على كلّ حال لم يُطرَح شيء من هذه الأسئلة، إلا ما جاء في مقالٍ لأحد الصُّحفيين الفرنسيين اسمه Arnaud Viviant الذي ندد بِسلُوك الفتيات لابِسات «السترينك» «Le string»، وهو تبّانٌ عبارة عن شريط لا يستر من العورة أدنى شيء. فنبّه Viviant بقوّة ما لذلك السلوك من استثارة للغرائز الجنسية عند الذكور الشباب... ومن حقِّ الإنسان المعاصر، كان مسلماً أو غير مسلم، بل من واجبه أن يستفتيَ العلوم الإنسانية في أحدث استنتاجاتها، دونما رأيٍ مسبّق في الموضوع، عساه أن

يهتدي إلى معرفة «الصواب العلمي» إن صحّ التعبير، أهو من جانب المرأة المسلمة المُختَمِرة (أو المتلففة في لحاف !)، أم من جانب المرأة الغربية الكاسية العارية، كما تُرى في الشوارع والندوات وصور المُلصقات الإشهارية وشاشات التلفزة والسينما ؟

والطرحُ العلمي الذي يفرض نفسه في معالجة هذه المسائل مُجَمَّعةً، يمكن أن يصاغ في سؤال واحد، كما يلي : ماهي الميكانيزمات (الآليات) النفسانية والوظائفية (Les mécanismes psychophysiologiques) التي تتحكّم في التواصل الجنسيّ بين الذكرِ والأُنثى، بصفة عامّة، وبين الرجل والمرأة بصفةٍ خاصّة ؟ أو بعبارة أوضح ـ ولا حياء في العلم ـ كيف يتمّ إغراءُ الأنثى الذكرَ بذاتها البدنيّة، أو كيف تجعله يشتهيها جنسيّاً ؟

جواب الأنثروبولوجيِّين عن السُّؤال جواب واضح لا غبار عليه، ويلتقون فيه مع خبراء «الإيثولوجيا»، أي علم السلوك الحيواني (L'éthologie) باعتبارهم الإنسانَ كائناً حيّاً ينتمي إلى «مَملكة الحيوان» (Le règne animal) من حيث خضوعُه الحتميُّ للنواميس العامة الضابطة للحياة الحيوانيّة المتجلّية في تحكم الغرائز (Lorenz, 469,70)؛ لكنّهم يُسلِّمون بأنّ نشاط الدماغ البشَريّ يتدخل بكيفية معقّدة في تلطيف مفعول تلك النواميس (Lorenz, 354). أما في ما يَخُصّ غريزة التواصل الجنسي من أجل التناسل، فقد قام الأنتروبولوجيُّون بدراساتٍ مقارنة بين السلوك البشري والسلوك الحيواني، فلاحظوا أن للأوصاف التشريحيّة (Caractéristiques anatomiques) التي يتميز بها جسم الإنسان أثراً عميقاً في فرز المرأة عن سائر الإناث بخصوص إغراء الرجل بنفسها؛ ذلك أن قامتها المنتصبة حوّلت بؤرة الجاذبية الجنسية من حيائها (عُضوها التناسلي) ووزّعت قوة تلك الجاذبية على أجزاء أخرى من البدن. فبينما ينجذب الذكر من الحيوانات العليا (الثدييات) انجذابا غرزيّاً لما يصدر عن العضو التناسلي الأنثوي، وعن العضو التناسليْ وحدَه، من المثيرات للغريزة (Les stimuli déclencheurs) في

شكل إفرازات خارجية (Les phéronomes) وروائح تَنِمُّ عن الوَدَق، بينما يُلاحظ أن الحيوان يسلُك هذا السلوك، يُلاحظ أن الرجل ينجذب غَرَزِيًا لمفعول رؤية جسم المرأة كَكُلٍّ يتميز بأوصافٍ خاصّة كبروز الثديين أو نُهودهما، وكِبَر الأرداف، ورونق البشرة؛ ولا ينجذب لجاذبية حياء المرأة إلا في آخر مرحلة من مراحل الانجذاب والتواصل. وقد تنبه الأنثروبولوجيُّون المُقارنُون إلى أن الفرقَ الجوهريّ في الخصائص التشريحية بين المرأة وبين إناث الحيوانات العليا، هو اختفاء عضوِها التناسلي بين فخذيها بحكم انتصاب قامتها وبحكم تغطية الشِّعرة لعانَتِها، وذلك على خلاف ماهو ملحوظ في إناث الحيوانات؛ جهازُها التناسلي بارز للعيان أملط لا شعرة حوله، لأنّه هو العنصر الأساسيّ في تفعيل الغريزة الجنسية، بل هو العنصر الوحيد، بما أن الذَّكَرَ المنجذب لا يراعي سواه من أعضاء الأنثى ولا يهتمّ بجمالها أو قُبحها، ولا يهتم بالأنثى ككلٍّ، أهي فتيَّة أم شارف (J.-D.Vincent,153,154.). والمُحَصَّلُ من هذه المعلومات أن الرجل يُغرى جنسيا بالمرأة عند رؤية بعض أعضائها، كالثَّديين والأرداف الممتلئة، ورؤية البشرة المحافظة على نعومتها وحسنِها. وقد أدرك قدماء العرب هذه الحقائق إدراكا عفويّاً، كما أدركهُ سائرُ البشر، لا شك. كان العرب يرون أن المرأة المُستوفيَة لشروط الأُنوثة القَمينَةَ بأن يعشقها الرجال، هي التي «تمشي على ستٍّ إذا أقبلتْ»، أي المتحرِّكة الرِّجلين واليدين والثديين، و «تمشي على أربع إذا أدبرت»، أي المتحركة الرجلين والرِّدفين من الكفل في ما يُمكن أن يراه الناظر من الخلف. وكان قدماء العرب يستحسنون عِظَمَ العَجيزَة عند المرأة غاية الاستحسان، ويستقبحون الرَّسَحَ غاية الاستقباح، حتى إن المرأة الرَّسْحَاءَ، أي القليلة لحم الأرداف، كانت تُضطَرُّ إلى تكبير عجيزتها بما كان يسمّى «العِجَازَة»، و«هي شيء شبيه بالوسادة تشده المرأة على عَجُزِها لتُحسَبَ عَجْزَاءَ» غيرَ رَسْحَاء. وكانت المرأة حين تريد أن تتحدى ضرتها أو منافستها وتَسْتَفزَّها، تقيس عَجيزَتَها بقطعة حبل وتُلقيها في استهزاء إلى التي تباريها إعجازاً لها (ستت 41، حبب 293). وفي الشعر العربي الجاهلي وغير الجاهلي عدد من الأبيات لا يُحصى يَنِمُّ

عن ثورة شهوة الرجل عند رؤيته من الأوصاف البدنية الأُنثوية ما يُهيِّج الغريزة. حرصتُ على هذا الإملاح في الحديث إظهارا لِما لبعض الخصائص التشريحية النسويّة من أهَمِّية في تفعيل الجاذبية الجنسية الأُنثوية؛ أَدْرَكَ ذلك عامة الناس، من رجال ونساء، منذ زمان، ثم أثبتت صحته المُلاحَظَةُ العلمية المُمَنهجَة المستحدثة منذ بضعة عقود فحسب. وهذا يدعونا إلى مراجعة مفهوم «العورة».

ولنا الآن أن نُسائل علم النفس في فرعيْهِ التحليليِّ والنَّشئيِّ عن التفاعلات والتّداعيات النفسانية والاِجتماعية التي تُصاحب عملية التجاذُبِ الجنسي بين المرأة والرجل، ونستفتي الخبراء، عسانا نستفيد من رأيهم في محاولتنا الإجابةَ عن السؤال الآتي بخاصّة : هل من وازعٍ نفسانيّ يدعو المرأة إلى التحفظ والتحذر في الاستسلام لرغبة الرجل في التواصل الجنسيّ وإيّاها ؟ وبتعبير آخر : هل هي مستعدة في جميع الأحوال للاستجابة في غير حرج نفساني لرغبة الرجل في التواصل الحميمي ؟ المعروف عند الأنثروبولوجيّين أن المرأة تختلف وظائفيا عن إناث الحيوانات العُليا في أنها تتحمل التواصل الجنسيَّ حتى خارج مدة «الإباضة» (البيض، l'ovulation)، لكنّ المرأة بصفتها إنساناً، لها نفسية صاغتها الحياة الاجتماعية في تدافعها مع الحياة البيولوجية، مُضطرة اضطراراً إلى مراعاة المواضعات الاجتماعية، خاصة حينما تكون تلك المواضعات تليدةً مُتَوارَثَة كرّس الدهر التوافق على الانقياد لها. ومن تلك المواضعات ضرورة لزوم الحشمة في حالات معيَّنة، منها ملابسات التواصل الجنسي الحميمي وما يشبه الحميميّ. ومن الأنثروبولوجيين مَن قدّر أن للحشمة أسساً بيولوجية، فيها انغرست الحشمة المُنَشَّأةُ في المجتمع البشري كمُجتمعٍ بشري؛ وحجتهم في ذلك أن الجَمَلَ مثلا يختلي بالناقة عند الضِّراب، وأن الحصان يرغب عن كَوم أمه رَغَباً كليّا، حتى إنه يمرض مرضا نفسانيًّا ظاهرا إن شعر بعد فوات الأوان أنه أُنزيَ عليها خِفيةً. والذي يهمُّنا نحن في حديثنا هذا هو الحشمة (أو الاحتشام) كظاهرة اجتماعية تطبع سلوك الإنسان في ظروف معيّنة، منها ظروف المغازلة والتواصل بين الرجل

والمرأة، إذ هي التي تعنينا بخاصّة. كيف تنشأ الحشمة في نفس الإنسان، وما دورها الاجتماعي ؟ هل من خصائص المرأة البيولوجية ما يجعلها أكثر احتشاما من الرجل، ما يجعلها خَفِرَةً، كما يقال في العربية، أي شديدة الحياء ؟

تُرَبَّى الحشمة في نفس الطفل انطلاقاً من أول يوم تغسِل فيه أُمُّه، أو مربّيتُه أعضاء جسمه؛ ذلك أنه يشعر تدريجيّاً بأنّ ما نسمّيه، نحن البالغين، بالعورة لا يُغسل كما تغسل الجهاتُ الأخرى من بدنه. ويُعرفُ منه أنّه أدرك مفهوم العورة إدراكاً ما عندما يُلاحَظُ فيه أنّه لا يَسمَح أن يجرَّد من ثيابه إلا لمن بينه وبينهم ألفةٌ ثابتة؛ يحدث ذلك عادة في الأسابيع التي ينتاب نفسَه خلالها الشعور باستقلال «أناه» عن «أنا» أُمّه أو مرضعته، أي في الأسابيع الموالية للفطام أو لدروجه الأوَّل على قدميه. ويظلّ الطّفل طَوال عهد طفولته الأولى، أي حتّى أواخر السنة الثالثة من عمره، يعتبر هجوما على كيانه الذّاتي كلّ تحديق إليه صادرٍ عن غريب لا يعرفه؛ ولذا يشيح بِوجهه عن الناظر إليه. وهكذا ينغرس في نفسه الشعور بضرورة التحرُّزِ من نظر الآخر، وضرورة التستُّر المناسب لكلِّ وضعٍ وحالٍ. وحبُّ التستُّر بستارٍ خاصٌّ بالبشر، نَشَّأته في نفوسِهِم الضرورة البيولوجيَّة أوّلاً، في نظر النُّشوئِيِّين الارتقائيّين؛ ذلك في رَأيهم أنَّ الإنسان لمَّا صار يرقى الدّرجات القُصوى من سلّم الحيوانات العُلْيَا تعوّدَ شيئا فشيئا الاستدفاء بالملبس، ففقد شَعَرَ فروتِه. فصار اللباس يلازمه لزوم جلده، لا يقيه من البرد والحر فقط، لكن يستر خصوصياته البدنية من نظر «الآخر» أيضا. وهذا يستدعي إلى ذاكرتنا الآية الكريمة : ﴿يا بَنِي آدَمَ، قَدْ أَنْزَلنا عَلَيْكُمْ لِبَاسا يُوارِي سَوْءاتِكُم وريشاً﴾. وبما أن الوجه ظلّ غير مستور لضرورة، عَملت الطبيعة، مَدعومة بالضّغوط الاجتماعية، على تكيُّفِه والأحوال النفسية، يحمَرُّ عند الاحتشام، ويصفرّ عند الخوف، ويكلح عند الغضب... ولذا يرى الخبراء أن احمرار الوجه ستار من نوعِ اللّباس يُسدلُ على الوجه تلقائياً حينما يشعر «الأنا» بأنّ حدّاً من حدود الحشمة قد اختُرِق. والفتاة، كما هو معلوم، أكثر تعرضاً لاحمرار الوجه من الفتى، فكأنها

أكثر احتياجا إلى التحرُّز والتَّحصُّن من التواصل غيرِ المرغوب فيه اجتماعيا أو بيولوجيًا. ولذا وضع في العربية فعل خاصّ باحتشام المرأة، هو الفعل خَفِرَ : خَفِرَتِ المرأة تَخفَرُ خَفَرًا، فهي خَفِرَةٌ، أي شديدة الحياء قوية الحشمة. لكنّ علماء النفس لاحظوا أنّ الاحتشام شبه مرفوع بين النساء حينما يَعتزلن الرجال؛ فاستنتجوا أن احتشام المرأة من الرجل دليل على أنّ رغبتها في التواصل معهُ ينبغي أن تكون مشروطةً؛ فرض ذلك على المرأة كلٌّ من الحياة الاجتماعية، ومن البنية الأُنثويَةِ البيولوجية قبل الحياة الاجتماعية ؛ وذلك لأنه، بعد ستار الملبس وستار ماء الوجه يوجد بين الفتاة والفتى ستارٌ أكثرُ رمزيَّةً وأصعب للاختراق من أجل التواصل، ألا وهو غشاء البَكَارَة. فممَّا تنبّه له الأنثروبولوجيّون المقارنون بتعاون مع الأطباء البيطريّين أن غشاء العُذرةِ يقوى عند الإناث ويعاين وجوده بوضوح بقدر ما يرقى النوع سُلَّمَ الحيوانات العليا؛ فهو أقوى عند المرأةِ منه عند أُنثى القرد، وهو أقوى عند أنثى القرد منه عند الرّمكَة أو عند البقرة، وهكذا تنازليًّا، إلى أنْ ينعدم عند الأنواع الحيوانية السفلى. وقد صار له منَ القوة البيولوجية والرمزيّة الاجتماعية ما جعل العذراء (البكر) لا تستسلم، مبدئيًّا، في التواصل الجنسيّ إلا للذي تشعر من وراء شهوتِه الغَرزيّة بقدرٍ من التجاوبِ العاطفي، أي من الحب ؛ و الحبّ المتبادل بين الذكر وقرينته ميزة للإنسان دون الحيوان، رغم ما يُلاحظ في سُلوك بعض «الأزواج» البهيميَّة من المحاكّة والملاعبة بين الأنثى والذكر. والمستورُ عند الفتاة أولى أن يجلبَ الحب، بينما لايجلبُ المكشوف إلا الشهوة الغرزيَّة الحيوانيَّة؛ وذلك لأن الفتى يشعر شعورا غامضاً بأنّ من وراء الستار «أنوثة مدّخرة» غير مبذولةً (Cinq-Mars 194). احتشام الفتاة إذن ادخار لأنوثتها، وهو في الوقت نفسه استراتيجيّة ناجعة لاختبار حبّ الفتى لها، و«تنضيج» اجتماعيّ له (Cinq-Mars 197)، لأن الشهوة ليست هي الحبّ (Lorenz 462)، ولأن الحب يزداد شدةً بقدر ما تُماطل الفتاة وتأبى الاستسلام الحميميّ، ساترة من بدنها ما قد يوحي ظهورُه بأنها على وشك النزول عند رغبة صاحبها، مُدنيةً عليها من ملابسها في كلّ حين، محمرة الوجهِ مرةً بعد مرة. وهذا

السلوك، حسب النفسانيّين أضمن لها لكسب حبّ الفتى بصورة مستديمة، ولجعل الزواج، إن تمَّ، مبنيّاً على أُسٍّ متين. ولعلّ هذا ما تفطن له الشاعر العربيّ القديم إذ قال :

ولا يلبث الفتيان أن يتفرقوا إذا لم يُزَوَّج روح شكلٍ لِشكل! (زوج 293)

والزواج معناه أن السُّتُر كلها أُزيحت بين الزوجين بذهاب العُذرة. ولذهاب العذرة أهمية قصوى، لما ينتج منه من محبة وتوادّ بين الرجل والمرأة إن قُدّم له بالتفاهم والتعاطف المتواصلين لمدةٍ ما، أو لما ينتج منه من التنافر والتباغُضِ إن لم تتسبّب فيه إلا شهوة غَرَزِيّة من قبل الفتى، أثارها من قبل الفتاة جنوح إلى الإباحيّة، أي ما سماه الإسلام التبرج؛ وسنرى ما التبرج بالضبط، كما كان في عهد الجاهلية. لكن ليس معنى هذا أن إفراط الفتاة في التعفف يُكسبها مزيدا من الجاذبيّة الأُنثوية؛ ليس معناه أن تلففها مثلا في لحاف واشتمالَها الصَّمّاءَ في ملبسها يُغري بها الفتيان أكثر، بل قد يحرمها من كلّ حظّ في التواصل معهم، خاصة إن أعرضت عن كلّ اختلاطٍ أو زَهِدت في مكالمة كلّ رجل لا تعرفه. والطريف عند البحث في هذه النقطة بالذات، هو أن يُلاحِظ الباحث أن رأي النفسانيّين فيها يلتقي ورأي بعض رجال الدّين المسلمين. تقول الأستاذة Cinq-Mars : «الأنوثة هي ما يمكن أن تُبْدِيَه المرأة دون أنْ تُعرِّض لا نفسها ولا الرجل للخطر»؛ ثم تضيف ما معناه أن تكلّف الحشمة (La pruderie) ليس هو الاحتِشام؛ وتوضح أن ما أسميناه آنفاً بسُتُرِ الحشمة ليس من وظيفته إلغاء أنوثة المرأة، ولا فصلها عن الرجال، لأن في فصلها تحقيراً ضمنيّاً لها وجحوداً بحقّها كإنسان؛ والتلفّفُ شائن للأنوثة (Cinq-Mars, 192,193). أما الفقيه الإيراني مُرْتَضى مُطَهَّري فيقول : في الاتِّجاه نفسه، ما يلي «إذا اعتبرنا أن من الواجب على المرأة أن تغطّي وجهها ويديها فقد احْتَجَزْناها وحَكَمْنا عليها بالسَّجن» ,(Motahhari 121, 122) ؛ وكأنّ هذا الفقيهَ تفهم شيئاً ما موقف النفسانيِّين إذ يقولون إن الحجاب السّاتر لما يستدعي الشهوة ليس هو التّلفُّفُ، ولا ينبغي أن يكون هو التّلفُّف (في

تشاضور)، لأن التلفّف يُفقِد الأمل في التفتح، خاصةً إذا كان يُغَشّي حتى النّظر (Cinq-Mars,175) لكنّهم، أي النفسانيّين، لا يُدينون التعري أقلَّ ممّا يدينون التّلفُّفَ، بل يرون فيه آفة اجتماعية يشملُ مفعولُها النساء والرجال.

يرى الباحث (Jean-Claude Kaufmann)، مثلاً، في مُؤَلَّفِه «أجسام نساءٍ ونظرات رجالٍ، Corps de femmes et regards d'hommes» (C-M. 200) أنّ الاعتقاد بأنّ تعرية المرأة لِعَجيزَتِها وثدييْها على رمال الشواطئ البحرية في الصيف عمل متحضر يُبرهِن على أن المجتمع مجتمعٌ مهذبٌ يضبط فيه الرجال أنفسهم ويتحكمون في غرائزهم، يرى أنّ هذا الاعتقاد لا أساس له، لأن البُحوثَ الميدانية أظهرت أن الرِّجالَ لا يلبسون النظّارات الملونة قصد وقاية الأعين من أشعة الشمس، لكن قصد التمكن من اختلاس النظرِ في عورات الحسناوات أيضا. ويرى M.A. Descamps في مُؤَلَّفِه «العري واللباس،le Nu et le Vêtement» كما يرى غيرُه، أنّ ممارسة التعرّي الجماعي تُذهِبُ كُلّ «سرّيّة» عن الميكانيزمات المُؤدِّية إلى التواصل الحميمي بين الرجل والمرأة، حتى إنها تُعَطِّلها في كثير من الحالات، وتُضعف الجاذبيَّة الجنسية العاملِة بين الذكر والأنثى، إذ تجعلها مبذولة غير مدَّخرة (C-M.199). ويلتقي J.C. Kaufmann مع غيره في سدادة الرأي إذ يبينون أن التعري على رمال الشواطئ، وأن مذهب «العريانية»، le nudisme، ليسا من علامات التحضر في شيء (C-M.200). أما H.P. Duerr فيُحلّل النتائج السلبية لممارسة التعري الاستحمامي الجماعي في نفوس الشريحة العريضة من النساء، نظراً لما يُحدِثُه عرضُ الأبدان الجميلة الفارهة من شعورٍ بالغبنِ عند اللواتي ليس لهنَّ حظّ من جمال وعند اللواتي جاوزن سن الشباب. وقد أدّى ذلك إلى ازدهار تجارة التجميل الاصطناعي متعدد الوسائل، وكأنّ العطّار أصبح قادراً على إصلاح ما يُفسِد الدّهرُ، في أبدان الرجال والنّساء ووجوههم على السّواء. هذه الاعتباراتُ كلّها، تدعونا إلى مراجعة النّظر في مفهوم الحرِّيَّة، وفي مفهوم التمدّن؛ وهذا موضوع آخر قائمِ بذاتِه. لكن يُمكن القول، بإيجاز، إن المُمارسة غير المقيدة

لبعض أنواع الحرِّيَّة الفردية تلحقُ الضرر بالمجتمع ككُلّ. هذا هو القصد، في نظري، منْ فَرْضِ الحجاب على المرأة المسلمة مادامت جاذبيتها الأُنثويّة فاعلة، حسب ما يمكن استنباطه من الآية : ﴿والقواعدُ منَ النِّسَاء اللاَّتي لا يَرْجُونَ نكَاحاً فليسَ عليهن جُناحُ أن يَضَعْنَ ثيابَهُنَّ غيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بزينَةٍ، وأنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ، والله سَميعٌ عَليمٌ ﴾ (النور، الآية 58).

وما الحِجاب الإسلاميّ بالضبط ؟ ... أعتقد أنّ فلسفة فرض الحجاب على المرأة المُسلمة لا يمكن أن تُدرك إلا لِمَن تَأمل ظروف نزولِ القرآن، وبخاصّة، الظروف الاجتماعية والاقتصاديّة في جزيرة العرب، أي الظروف التي فشت فيها ظاهرة التبرج في أُمِّ القرى وفي المدينة بصورة ملحوظة. والتبرُّج كما تُعرفه أُمهات المعاجم العربية «هو ما يُستدعى به شهوة الرجل». والقرآن ينهى عنه النّساء المسلمات : ﴿ولا تَبَرّجن تبرُّج الجاهليَّة الأولَى﴾. والواقع أن الأحوال الاقتصاديّة والاجتماعيّة في الجزيرة جعلت من البِغاء حرفةً يُكسَب بها العيش. وكان الرّقُّ مؤسّسة آنذاك كما كان في سائر البلدان ؛ فكان العبيد الذّكور في مكة والمدينة يمتهنون المهن ليؤدّوا لأسيادهم ما يفرضونه عليهم من الإتاوات. وكانت الإماء تُضرب عليهنّ الضرائبُ من قبَلِ ملاّكهِنَّ، فيُؤَدّينها بالزنا والبِغاء؛ كان ذلك يُسمّى بالمُساعاة (le proxénétisme) وكانت البغايا في أشدِّ الحاجة إلى كسب أكبر قدرٍ مُمْكنٍ من المال لإرضاء أسيادهِنَّ ولِسدّ حاجاتهِنَّ إلى المأكل والملبس والمسكن؛ فكُنَّ يترددّن على الأزقة والطرقات ويتبرّجنَ، أي يحاولن استدعاء الشهوة، شهوة التواصل الجنسي عند المارّة من الرجال. فكُنّ يُبدين من أجسامهنّ ما يُغري، ويُسمعن وَسْواسَ حلْيهنّ؛ وكنّ يَقْحَبْنَ، أي يتكلفنَ السّعال إيذاناً لطُلاّبهنّ. وكنّ يتمايلن في مشيتِهِنَّ، ويَمتشطن المشْطة الميلاء؛ وفيهنّ قيل «الكاسيات العاريات المائلات المُميلات، اللّواتي يعلّمنَ غيرَهُنّ الدخول في مثل فعلهنّ» (ميل 637) ورأفةً بِهِنَّ نزلت الآية الكريمة ﴿ولا تُكْرِهوا فَتَياتكُمْ على البِغاء، إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً ﴾ (النور، الآية 33) فلا غرْوَ، والحالة تلك، أن تُؤْمَرَ المسلمات، لا

بالتخلّي عن التبرُّج فحسب، ولكن بأن ﴿يُدنين عَليهِنَّ من جلابيبِهِنَّ﴾، ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾. أمّا الآيتان ﴿قُل لِلْمؤمِنِينَ يَغُضّوا مِنْ أَبْصارِهِم﴾، ﴿وقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ من أَبْصارِهِن﴾ (النور، الآية 30، 31)، فَكَأنّهما تعريض مباشر بالمُتَعرّين والمُتَعُرّيات علىٰ الشواطئ، لابسي النّظارات الملونة الّذين انكشفت خفايا سلوكهم للباحثين النّفسانيين السابقي الذّكر. وممّا تجدُرُ الإشارة إليه أنّ رأي الأنثروبولوجيين في تحديد الأوصاف البدنية الأنثويّة المُثيرة للشهوة الجنسية عند الرجل يوافق رأي عمر بن الخطاب، في نهيه المسلمين عنْ إلباس نِسائهِم ما شفَّ أو وَصَفَ، إذ قال «لا تُلبسوا نِساءكُم القَباطِيَّ، فإنّه إن لا يَشِفُّ فإنه يصف» (شفف 180) أي يَلصَق بالأرداف ويَصِفُها بدقّة، كالسروال المسمّى «الدجين، jean» عندنا اليوم. ومجملُ القول هو أنّ الإسلام أو الديانات السماويّة الثّلاث – وبعض الثقافات، كالثقافة الصينية القديمة – تتوافق وما أفضت إليه أحدث البحوث العلمية الأنثروبولوجية والنفسانية في القضاء بأنّ لزوم الاحتشام في الملبس ضروريّ للحفاظ على الصّحّة النفسيّة الجماعيّة ولضمان بقاء الميول الغرزيّة التناسليّة سليمةً، لا يعتريها ضعفٌ أو انحرافٌ. ونحن نعلم جميعاً ما وصلت إليه الانحرافات الجنسيّة في بعض المجتمعات، وما أدّى إليه عزوف المترفين عن التزوّج والرّغَبُ عنِ التمتع بمسرّات الأبوة والأمومة من نقصٍ في التوالد، نقصٍ تسعى الآن أكثر الأمم غنىً وتحضُّرًا لتداركِهِ خشية البَيادِ، كما هو شأن ألمانيا، مثلا.

لكن، ليس المقصود من هذا العرض هو التحريض على إلزام المرأة بارتداء لباس معيّن؛ لأن المرأة بصفتها أخت الرجل ينبغي أن تتمتع بجميع الحقوق التي يتمتّع بها الرجلّ، حتى في سلوكها وتصرّفاتها. المقصود من هذا العرض هو دعوة المرأة، في عهد تحرّرها إلى أن تُراعي أنّ في التبرّج والتّعرّي نوعا من الشّطط في ممارسة السلطة الأُنثويّة التي خولّتها إيّاها الطّبيعة بجعل محاسنها جذّابة للرجل. أم في نفسها نقمة تُنقِمُها على الرجلِ وتريدُ عقابَهُ، لأنّه مارس عليها

سلطة الأقوى بدنياً واشتطّ في ممارستها منذ أن كان الرجل وكانت المرأة، وهو لا يَرْعَوي حتى اليوم ما لم يُزجر؟ لا أعتقد أنها تنتقم أو تفكّر في الانتقام، ولا ترغب، حسب تقديري، في انقراض الجنس البشريّ بسبب التنافر بين الذكر والأنثى، ولا في أن تُحرَم من احتكار القُدرة على الإنجاب، فيزاحمها فيها الاستنساخ البيولوجي والتوليد في أنابيب المختبرات. إنّ المقصود من عرضي هو حثّ العلماء الخُبراء من الرّجال، والعالمات الخبيرات من النساء، على النظر المُرَشَّد المُعَقْلَن في موضوعٍ طريفٍ بطرافةِ المُسْتَجِدَّاتِ من قضايا الحياة العصريّة ومشكلاتها؛ وهو ما يمكن أن نُسَمِّيه موضوعَ «إكولوجيّة البيئة المعنويّة» أي البيئة النفسانيّة بِشِقّيْها، الوجداني والفكريّ. إنّه موضوع قابل لأنْ يطرق في الندوات والملتقيات العلمية على غِرار واحد مع موضوع البيئة الجغرافيّة، شريطة أن يُولَى الأهميّة القصوى. وممّا يبعث على التفاؤل أنّ من النساء من بدأن يشعرن بأنّ أنماط العيش المستحدثة ابتذلت الجاذبيّة الأنثوية الطبيعيّة، وجعلتها مجرّد مَصيدةٍ تجاريّةٍ يعْتَمِدُها الإشهار في أسواق الكماليّات، إن لم تجعلها بضاعةً من البضائع. وآخر القول إن المقصود من عرضي هذا، هو دعوة الزوج والزوجة، كلِّ زوج وزوجةٍ، إلى تكييف تعايشهما الحميميّ وتلازمهما في المعاشرة، التكييف اللائق، بحيث يزداد الرباط الحيويُّ الرابط بينهما قوةً، يوماً بعد يوم، وبحيث يكون حب أحدهما للآخر ووفاؤه له مصداق قول الخالق سبحانه، مخاطبا الرجال : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لكُمْ وأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة، 186)، ولقوله عز من قائل... ﴿ وقد أَفْضَى بَعْضُكُمْ إلى بَعْضٍ، وأَخَذْنَ مِنْكُم ميثاقا غَلِيظاً ﴾ (النساء،21)، والواقع أنّ أغلظ المواثيق هو الذي يترتّب عليه التمازج الحيويّ بين كائنين واعيين لمعنى الحياة. هذا، ومن جهة أخرى، أعتقد أنّ من الممكن أن يُصَيَّر النِّقاش حول الحجاب مدخلاً للحوار الجادِّ الرَّصين، لا بين الإسلام والديانات الأخرى، لكن بين الإسلام والعلمانية، لأن الفكر العلماني هو السائد اليوم في الثقافة الغربية. ولن يتأتّى للمتحاورين أن يعالجوا نِقاط التعارض والاختلاف بين الرؤى الإسلامية

والرؤى الغربية إلا بشرط، هو أن يكون لكلّ جانب من الجانبين خِبرة واسعة بثقافته الذّاتية وبثقافة الآخر أيضا. أما في غير هذه الحال، فسرعان ما ينقلب الحوار إلى تخاطبٍ أشبه شيءٍ بتخاطبِ الصّمِّ.

المراجع

الأنثروبولوجيا، والإثولوجيا :

- K. Lorenz, "Essais sur le comportement animal et humain", Editions du Seuil 1970.

- Vincent, Jean-Didier, "Qu'est ce que l'homme ?", Edition. Odile Jacob (poches), 2001.

*** مقالات مستخرجة من الأنترنيت في موضوع البكارة.**

علم النفس التحليلي والنشئيّ :

- Cinq-mars, José Morel, "Quand la pudeur prend corps", Presses Universitaires de France, Série "Partage du savoir", 2002.

أدبيّات النقاش في موضوع الحجاب الإسلامي :

- Geadah, Yolande, "Femmes voilées", Edition. VLB, 1996

- Motahhari, Mortada, "La question du voile" Edition, "Al-Bouraq", Beyrouth, 2000.

الأدبيات العربية التي لها صلة بالموضوع :

الحروف الثلاثة الواردة بين قوسين والمتبوعة بعدد، تُشير إلى المادة المعجمية، وإلى الصفحة، في «لسان العرب».